

الأيام الأخيرة على الخريطة التي تحدد هذه المناطق، وتبين الوثيقة بما لا يدع مجالا للشك أن حدود المغرب كانت تمتد من فيك إلى الرأس الأبيض (نواديبو حاليا)، كما تبين الخريطة أنه إذا كان البريطانيون يعارضون تحديد النفوذ الفرنسي على الساقية الحمراء ووادي الذهب التي كانت مغربية، من قبل الدولتين ، فإن البريطانيين كانوا يقبلون مد هذا النفوذ على الصحراء الوسطى التي انتزعت من المغرب.

إن الاتفاقية السرية المبرمة بين فرنسا وإنجلترا في خامس غشت 1890 تؤكد مغربية الصحراء، وتدلل على أن القوتين الكبيرتين تعترفان بمغربية الصحراء وبممارسة السيادة المغربية على أقاليمه الجنوبية⁵²، الشيء الذي تؤكد أيضا بالعديد من الحجج والأدلة القانونية.

المبحث الثاني

الحجج القانونية حول مغربية الصحراء

إن ارتباط الصحراء بالدولة المغربية هو ارتباط أزلي، يشكل حقيقة جدلية لا مرأى فيها، ذلك أنها عنصر فاعل في تاريخ الأمة المغربية لا يمكن إسقاطه بأي حال من الأحوال. ولتوضيح هذه الحقيقة ، إن كنا أصلا في حاجة إلى ذلك، نتطرق إضافة إلى الحجج التاريخية الداخلية منها والدولية التي عرضنا إليها سابقا، إلى العديد من الحجج والأدلة القانونية التي تؤكد مغربية الصحراء، وارتباط سكانها منذ القدم بالسلطان المغربي وبالدولة المغربية.

⁵² . أنظر محمد احمد باهي، الليث سيدي احمد الركبي، مرجع سابق ، ص 23-24.

وهكذا ، فامتداد الرقعة الجغرافية للإيالة الشريفة دفع السلطان إلى تعيين أشخاص يمثلونه حتى يمكن للأوامر السلطانية السريان في مجموع التراب الموجود تحت نفوذه، وعليه كان السلطان يحرص على تمثيلته داخل تلك المناطق بأسلوب مرن يمكنه من أخذ فروض الطاعة منها، وذلك وفقا لمبدأ الشورى والعدل وحملهم على الطاعة والامتثال. وقد كانت مهمة القائد ممثل السلطان هي الحفاظ على الأمن والطمأنينة بالمنطقة المعين فيها وإخماد كل ما من شأنه أن يشعل نار الفتنة، وجمع الجبايات الشرعية إضافة إلى توطيد علاقات البيعة الشرعية بين القبائل والسلطان⁵³.

وكان تعيين الخليفة والقواد والعمال والقضاة من طرف السلاطين المغاربة يتم في عواصم المغرب المعروفة. ففي القرن الثامن الميلادي ، وبالضبط سنة 720 م ، وصل القائد المغربي " الحبيب بن أبي عبيدة " إلى الصحراء موفدا من العاصمة الشريفة، وبعده عين "عبد الله بن إدريس الثاني" عاملا على الصحراء. وقامت دولة بني مرين ، فوجه السلطان المريني " يعقوب بن عبد الحق " أحد قواده عاملا على ما وراء درعة، واستقرت الأحوال بعد ذلك وظل المرينيون يجددون عمالهم طيلة قيام الدولة. وعند قيام دولة الشرفاء السعديين ظهر الاهتمام الكبير بالمناطق الصحراوية المغربية. وفي سنة 1678 قام المولى إسماعيل العلوي بالتجول في مجموع الصحراء واجتمع بجميع رؤساء القبائل وعين منهم قوادا وولاة، ونصب ابنه عبد المالك خليفة على ما وراء درعة، وبعد وفاة المولى إسماعيل توجه المولى عبد الله إلى درعة سنة 1730 م، كما قام ابنه سيدي

. الحسن الثاني ملك المغرب ، التحدي ، مرجع سابق، ص324. 53

محمد بن عبد الله سنة 1755 بزيارة أخرى للصحراء وعين قائدا على المنطقة هو القائد "المحجوب بن قايد"⁵⁴.

إن تعيين السلطان لمن يمثله، من القواد والعمال في مختلف مناطق المغرب بما فيها الأقاليم الجنوبية، يكتسي دورا محوريا في ترسيخ وتمتين أوامر البيعة والولاء بين القبائل وسلطان المغرب، ويساعد أيضا على تيسير طرق تدبير الإدارة الترابية اللامركزية.

فقد احتج السلطان مولاي عبد العزيز في رسالة مؤرخة في 5 صفر 1318 (1900 م) وموجهة إلى القائد "عبد الله بن سعيد"، عضو المخزن في طنجة، على دخول القوات الفرنسية واختراقها الصحراء⁵⁵. وهذا ما يؤدي إلى استخلاص نتيجتين حتميتين، أولهما تمسك العرش المغربي بمغربية الصحراء وإصراره على وحدة المغرب وسيادته الترابية، والنتيجة الثانية تتمثل في الدور المركزي للقواد للإسهام في جهود ترسيخ مغربية الصحراء.

ويقوم مفهوم الدولة في المغرب على علاقة عقدية تشكل ميثاقا سياسيا بين الحاكمين والمحكومين، ويتجدد من طرف الشعب لكل سلطان يتولى الحكم، وذلك بمقتضى البيعة المكتوبة، ويلتزم السلطان من خلال هذا العقد بتحقيق غايتين تتمثلان في الدفاع عن إقليم محدود وغير قابل للتفويت وتأسيس نظام مدني كفيل بضمان الأمن للجميع.

والبيعة بهذا المفهوم تعتبر هي أساس ممارسة السيادة من خلال ولاء الأشخاص والقبائل للسلطان، وحين يصدر هذا الولاء فإنه يصبح نهائيا ويهم مجموع الإقليم الذي عبر سكانه عن ولائهم، والتعبير عن الولاء بواسطة البيعة المكتوبة يعتبر أسمى وسيلة

⁵⁴ انظر محمد تاج الدين الحسيني، وسائل حفظ السلام في العلاقات الدولية المعاصرة ودورها في تسوية نزاع "الصحراء الغربية"، مرجع سابق الذكر، ص126.

⁵⁵ انظر محمد الغربي، الساقية الحمراء ووادي الذهب، الجزء الأول، الدار البيضاء، دار الكتاب، (بدون ذكر تاريخ النشر)، ص171.

لإقرار سيادة السلطان. وتقضي القواعد العرفية المطبقة بأن المبايعة تصبح ضرورية بعد وفاة كل سلطان حيث تتم كتابة البيعة من طرف العدول في المراكز الكبرى وتتلى في المساجد ثم توجه إلى السلطان. وتجدر الإشارة إلى أن سيادة السلطان كانت تهم مجموع إقليم الصحراء بناء على العلاقة الشخصية مع الرعية، وهي سيادة تعني في آن واحد ممارسة السلطة الدينية والسياسية، ومن هنا تتبلور خصوصية السيادة في القانون المغربي⁵⁶ ، وبطريقة أخرى يمكن الجزم أن البيعة هي السيادة.

وبناء على ما سبق، سنتطرق لتعيين القواد والولاة على القبائل الصحراوية من طرف الملوك العلويين، والبيعات الشرعية، كحجج قانونية على مغربية الصحراء في إطار الحجج والأدلة القانونية العديدة والتي لا يتسع المجال لتحليلها جميعا، وذلك في فقرتين :

الفقرة الأولى : تعيين القواد والولاة على القبائل الصحراوية من

طرف سلاطين المغرب.

الفقرة الثانية : البيعات الشرعية.

الفقرة الأولى : تعيين القواد والولاة على القبائل الصحراوية من

طرف سلاطين المغرب

إن تعيين أحد الولاة بالصحراء كان يتم بإحدى طريقتين : الطريقة الأولى هي أن يعين الوالي من طرف أمير المؤمنين بظهير ملكي، وقبل سنة 1912 كان لا يمكن أن يتراأس أي فرد على إحدى الجهات الصحراوية إلا إذا كان بيده ظهير من جلالة الملك بفاس أو مراكش ، وهذا الرئيس الذي كان يطلق عليه اسم "القائد" ، كما هو الشأن في

. نفسه ص 172. 56.

سائر أنحاء المملكة يكون محل إجلال وتقدير لا من طرف أفراد قبيلته فقط، ولكن يكون ذلك شاملاً لجميع الناحية التي عين بها.

أما الطريقة الثانية، فكان يلتجأ إليها نادراً قبل سنة 1912 وهي أن يعين المسؤول من طرف أفراد القبيلة، ويلجأ لهذه الطريقة لسببين اثنين:

- بعد المسافة وعدم ملاءمة الظروف في التنقل بين الشمال والجنوب.
- الحواجز التي وضعت بين جهات الوطن، والعادة أن يجتمع أعيان القبيلة أي رؤساء الفخذات إذا كان الأمر يتعلق بتعيين رئيس القبيلة، ويتشاورون في اختيار العنصر الذي يصلح للقيادة السياسية والدينية، ويشترط أن تكون له دراية شاملة بالأعراف وليست له عداوة مع أحد في فخذة القبيلة ولا مع إحدى القبائل الصحراوية الأخرى.

وإذا تعلق الأمر بتعيين رئيس الفخذة فإن أفرادها، بالتعاون مع الرئيس العام للقبيلة هم الذين يعينونه متبعين في ذلك نظم الشورى المتبع في مختلف جهات البلاد⁵⁷ وكان يحصل فيما بعد هذا الرئيس المعين على موافقة السلطان بموجب ظهائر التوقيع والإحترام.

وهذا الرئيس إما أن يكون نفوذه يشمل كافة أفراد القبيلة فيعرف بالقائد، وإما أن يكون نفوذه لا يشمل إلا فرقة فعندئذ يعرف بالشيخ. وأول مهمة تلقى على رئيس القبيلة

⁵⁷ . لم يكن العاهل مولاي سليمان مطمئناً على الأوضاع بالصحراء بسبب جور بعض الولاة وانعدام المقدرة لدى معظمهم، وسياسة القهر الضرائبي التي مارسها المسؤولون المركزيون، وهكذا فإن القائد الحكاموي الذي أوفد لتحصيل الجباية سنة 1796 م بتافيلالت، استخلص بالشدة مائة وثلاثين قنطار فضة و 50 ذهباً.

هي الاتصال لتمتين أوأصر الأخوة والتعاون بين قبيلته وجميع القبائل الأخرى، الشيء الذي يجعل ولاة القبائل الشرعيين يكونون أسرة واحدة تدافع عن مصالح المنطقة وتحافظ على استقرارها داخل كيانها الخاص ، الشيء الذي يثير الانتباه هو أن رئيس القبيلة في الصحراء يعتبر محاميا متبرعا يدافع عن حق كل ضعيف من أفراد قبيلته أو من أفراد أي قبيلة أخرى ابتغاء مرضاة الله .

وهو يصد صولة الظالم ويساعد المغلوب على أمره حتى يستكمل حقوقه، وحالة إصدار الأحكام يكون الولاة حاضرين ، ذلك أنهم كانوا في القديم حسب العادات المتبعة يمثلون المرجع الأعلى في النزاعات بصفتهم مستشارين شعبيين لدى القضاة ثم إنهم من جهة ثانية يكونون شبه مجلس إقليمي يتفق على وضع قرارات تنظيمية لمصلحة الإقليم الصحراوي، أي لمصلحة مجموع القبائل⁵⁸.

وتميل الدراسات التاريخية إلى اعتبار أن أول عامل أسندت إليه مهمات محددة هو "ابن موسى بن نصير" الذي استقر في درعة وكان يرسل متطوعة المصامدة ورهائنها إلى طنجة عندما كانت الاستعدادات جارية لاجتياز المضيق نحو الأندلس.

ووقع تعيين إسماعيل بن عبيد الله عاملا على السوس وما وراءه سنة 732 م، وإسماعيل هو ابن القائد الفاتح عبيد الله ابن الحباب. وفي عهد الأدارسة عين عبد الله بن المولى إدريس الثاني واليا على سوس وتندوف وما وراءهما، وقد أرسل المنصور السعدي القائد محمد بن سالم لتمهيد درعة والساقية الحمراء ووصل إلى نهر السنغال عن

⁵⁸ . راجع إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ ، الجزء الثالث ، الدار البيضاء ، دار الرشاد الحديثة ، 1985 ، الطبعة الأولى ، ص146 .

طريق الساحل الموريطاني ، ونصب القائد بن سالم عاملا على هذه الصحراء هو المولى بنعيسى، وأثناء حروب أبناء المنصور استقل بودميعة بالساقية الحمراء التي وصلها في إحدى غزواته.

وعندما أعيدت الوحدة الوطنية على يد الشرفاء العلويين، انتظمت الصحراء في سلك عمالات المغرب، واهتم المولى إسماعيل ثم سيدي محمد بن عبد الله والمولى الحسن الأول نظرا لظهور الأطماع الأجنبية بهذه الأقاليم الواقعة على المحيط الأطلسي، وتتابع إرسال القضاة والولاة ، وكانوا غالبا من وجوه قبائل الصحراء أنفسهم⁵⁹.

وتؤكد بعض المصادر الملكية وجود جور شائع يمارسه بعض ولاة السوء بالمناطق الصحراوية⁶⁰، مما أدى بالسلطان مولاي سليمان إلى الاستعانة بلجن من الأمناء يبعث بها دوريا إلى الأقاليم الصحراوية لاستخلاص الجباية ، سحب قواده من المنطقة تاركا تسيير الشؤون الداخلية وقضايا الأمن للقبائل نفسها ، وكان على الأمناء أيضا أن يقوموا بالنظر في المظالم الرئيسية وينفذوا العقوبات فيها على الجناة ويضبطوا ما يحتاج إلى الضبط، غير أن سحب الولاة لم يستمر طويلا ، ففي سنة 1803 م تولى العامل محمد الصريدي (عامل تافيلالت) جباية النواحي المجاورة حتى فيكيك، كما توجه مولاي سليمان إلى سجلماسة حيث أشرف على تنصيب حاميات الجيش بمختلف المناطق التي عين عليها ولاة جددا⁶¹.

59 . راجع محمد الغربي ، الساقية الحمراء ووادي الذهب ، مرجع سابق الذكر ، ص175.

60 . للاطلاع على لائحة تضم أغلب الولاة والقواد الذين زاولوا مهامهم بالصحراء المغربية. راجع محمد ابن عزوز حكيم ، السيادة المغربية في الأقاليم الصحراوية من خلال الوثائق المخزنية، مرجع سابق ، ص ص 26-50.

61 . راجع عبد الله العروي : " الجذور الاجتماعية الوطنية المغربية" ، وورد في : مدخل إلى تاريخ المغرب الحديث من عصر الحسن الأول قدس الله روحه إلى عصر جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله، أشرف على إعداده عبد الحق الميريني ، الرباط ، مركز الدراسات والبحوث العلوية ، وزارة الشؤون الثقافية ، 1996 ص12

وفي عهد السلطان مولاي عبد العزيز، كلف هذا الأخير الشيخ ماء العينين بتعيين عمال على الصحراء بموجب تفويض مكتوب، وذلك باعتباره رئيسا لهذه الجهات يستمد نفوذه من السلطان، ويتبع خليفة المخزن بتاغيلالت المولى إدريس بن عبد الرحمان بن سليمان، وبهذه الصفة وجه الشيخ رسائله إلى رؤساء كتنة وتكنة والعروسيين وغيرهم. وقد ظل الولاة والرؤساء يتوارثون ظهائر التعيين إلى زمن ليس بالبعيد، وقد قدم مختلف زعماء القبائل ظهائر تعيينهم للتجديد بعد استقلال المغرب⁶².

وقد زاول الولاة والقواد مهامهم بالصحراء المغربية منذ القدم، وكانت لهم علاقة وثيقة بالشؤون الصحراوية في إطار الترابط التام مع سلطة المخزن وسلطين المغرب الذين عينوهم، حيث كانت تجمع بينهم أحيانا إضافة إلى علاقات الانتماء للوطن الواحد علاقات الدم والقربانة⁶³.

وهكذا ، يتضح جليا أن السيادة المغربية تمارس في الصحراء بواسطة نائب الخليفة وقواد من كل القبائل عملوا على تمتين الأواصر والروابط بين الدولة المغربية والأقاليم الجنوبية منذ القدم.

فالعادة هي أن يفوض السلطان إلى القائد أو الشيخ مهمة تحقيق أغراض البيعة في منطقة نفوذه، وبواسطة هذا التفويض يتوحد الهيكل الاجتماعي المغربي تحت زعيم واحد هو السلطان أي صاحب السلطة العليا⁶⁴.

وبصفة عامة ، فالصحراء ما فتئت أرضا مغربية وجزءا لا يتجزأ من تراب المملكة المغربية بحكم كل أنواع الروابط القانونية والسياسية والاجتماعية، ذلك أنه لم يثبت قط في

⁶² . راجع مصطفى قصير العامري، الشورى والبيعة ودورهما في انعقاد الإمامة الكبرى ، بيروت، المركز الإسلامي للدراسات ، 1996 ، الطبعة الأولى، ص104.

(. انظر ابن خلدون ، المقدمة ، بيروت ، دار القلم، 1984 ، الطبعة الخامسة ص209..⁶³
⁶⁴ . انظر محمد الإدريسي العلمي ، "القانون الوضعي واسترجاع الصحراء"، المجلة المغربية للقانون والسياسة والاقتصاد، العدد 3 ، دجنبر 1977 ، ص 98 .

التاريخ أن استسلم الملوك المغاربة ولا القبائل الصحراوية للضغط الأجنبي الرامي إلى احتلال الصحراء وفصلها عن المغرب، لأن روابط سلاطين المغرب بقبائل الجنوب كانت دائما قوية وترسخها علاقات البيعة الشرعية.

الفقرة الثانية : البيعات الشرعية كأداة لترسيخ مغربية

الصحراء

البيعة هي الصفقة على إيجاب البيع وعلى المبايعة والطاعة، والبيعة والمبايعة هي الطاعة نفسها، يقال تبايعوا على الأمر أي أصفقوا عليه، وبايعه على الأمر أي عاهده. والمبايعة هي المعاهدة والمعاقدة، كأن كلا من الطرفين باع ما عنده من صاحبه وأعطاه خالصه نفسه وطاعته ودخيلة أمره. وبايع السلطان إذا تضمن بذل الطاعة له بما رضخ له⁶⁵.

وقد عرفها ابن خلدون بأنها العهد على الطاعة، كأن المبايع يعاهد أميره على أنه يسلم له النظر في أمر نفسه وأمور المسلمين لا ينازعه في شيء من ذلك ويطيعه فيما يكلفه به من الأمر.. وكانوا إذا بايعوا الأمير وعقدوا عهده جعلوا أيديهم في يده تأكيدا للعهد، وأما البيعة المشهورة لهذا العهد فهي تحية الملوك الكسروية من تقبيل الأرض أو

. الدكتور عبد الحميد سحبان، " البيعة .. المؤسسة العريقة .. " جريدة الصحراء المغربية، العدد 3578، 6 نونبر 1998 . 65

اليد أو الرجل أو الذيل ، أطلق عليها اسم البيعة التي هي العهد على الطاعة مجازا لما كان هذا الخضوع في التحية والتزام الآداب من لوازم الطاعة وتوابعها⁶⁶.

وبخلاف طقوس البيعة التقليدية في الإسلام ، نجد جلالة المغفور له الملك الحسن الثاني، في خطابه الموجه إلى الأمة في 16 أكتوبر 1975 المعلن عن تنظيم المسيرة الخضراء ، يضع مسألة كتابة البيعة في مقدمة المميزات التي تطبع هذه الأخيرة في المغرب، ذلك أن المغرب هو : " .الدولة الوحيدة التي لم تكثف بالبيعة الشفوية بل ما ثبت في تاريخ المغرب وفي أي دولة مغربية أنه وقعت بيعة شفوية بل كانت دائما بيعة مكتوبة..".

أما المعنى الفقهي السائد لمفهوم البيعة فيذهب إلى تعريفها بأنها العهد الذي يأخذه الإمام تجاه أفراد الأمة بأن يقوم بأمرهم وأمر دينهم حسب ما يفرضه كتاب الله وسنة نبيه، ويأخذ بمقتضاه عليهم أن يساندوه ويقفوا بجانبه فيما أمر الله به ليكون قويا إزاء الظالم حتى يأخذ الحق منه، وضعيفا أمام المظلوم حتى يأخذ الحق له⁶⁷.

إن ربط فكرة البيعة بالولاء والطاعة يجعل من هذه الأخيرة لا تخرج عن إطار المفهوم الغربي "allégeance" ذات البعد السياسي المدني فقط ، أما بالنسبة إلى البيعة في المفهوم الشرعي الإسلامي فلها عدة أبعاد أكثر عمقا من البعد السياسي ، ولعل أخطرها وأهمها البعد الذي يلتقي فيه السياسي بالشرعي الذي تخرجت عنه الدولة الإسلامية الأولى

66 .حمداني شبيها ماء العينين ، "كيف حافظت البيعة على بقاء الملك في الدوحة العلوية، وأثر ذلك على وحدة الدولة واسترجاع السيادة" ، أشغال الدورة الثانية لندوة البيعة والخلافة في الإسلام ، الجزء الثاني، العيون، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1994 ، ص36.

67 . أنظر الحديث الصحفي لجلالة الملك المغفور له الحسن الثاني لمجلة "جيو بوليتيك" الفرنسية والمنشور يوم 14 ماي 1997، وارد في : خطب وندوات صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني، مارس 1997 - مارس 1998، الرباط ، نشر وزارة الاتصال ، 1998، ص105.

على عهد رسول الإسلام (ص) والذي طبعها وميزها عن نظيراتها في العالم باقتران السياسي بالشرعي ، كما أن هذا البعد هو الذي كان وراء إقامة الدولة المغربية عند كل بداية أسرية من بداياتها .

و لما كانت البيعة في الإسلام بهذا البعد ، فلا يسعنا إلا أن نؤكد على أهمية عنصر الأرض بالنسبة إلى البيعة ، لأن إقامة أية دولة و في أية حقبة لا يمكن أن تتم بمعزل عن هذا العنصر الأساسي ، كما أن منح البيعة يصير دون معنى في غياب هذا العنصر الحساس . ففي التاريخ الإسلامي عامة وتاريخ المغرب خاصة، كانت البيعة دائما مقرونة بالأرض ، فلم نقرأ أبدا عن بيعة مجردة عن اسم الإقليم الذي صدرت عنه ، وإنما نقرأ دائما بالبيعة مقرونة باسم الإقليم أو القبيلة التي بايعت ، لان البيعة وكما أكدنا سابقا ليست مجرد عهد على الطاعة بل إنها بيعة على الأرض التي تعتبر من ثوابت الدولة الإسلامية ومن عناصر استمراريتها كأى دولة من دول العالم القديم أو الحديث .

وبناء على ذلك يعبر اقتران البيعة باسم البلدة أو الإقليم الذي يعطيها عن دخول هذا الإقليم المباع للسلطان ضمن الحوزة الترابية التي يحكمها، وهكذا تصير بيعتها في عنقه بمعنى أن أرض الإقليم الذي بايع سكانه تطالب السلطان بالدفاع عنه في حالة وجود خطر خارجي يتهدهد .

وماذا يعني أيضا أن البيعة في المغرب لم تكن أبدا شفوية بل كانت مكتوبة ، إن لم يكن ذلك تأكيدا خطيا على اقتران البيعة بعنصر الإقليم، وهل بالإمكان كذلك اعتبار ارتباط البيعة بالأرض السبب الرئيسي والدافع الحقيقي وراء كتابة البيعة ، فالوثائق التاريخية

كثيرة بهذه البيعات التي أعطيت للسلطين والتي كانت تأتي مكتوبة باسم القبيلة أو البلدة التي أعطت البيعة (بيعة فاس، بيعة الداخلة...) ⁶⁸.

فالببيعة إذن هي الركن الأساسي للدولة المغربية، وقد ظلت رمز إنقاذ للوحدة ولجمع كلمة الأمة وإخراج البلاد من هوة التخلف ، وللقوف في وجه المحاولات الأجنبية ولبسط نفوذ ألوية الأمن على سائر ربوع المملكة ، وهذا ما جعل جلالة المغفور له الملك الحسن الثاني يؤكد أن ممارسة البيعة عنصر جوهري في النظام الملكي المغربي ليس على المستوى الدستوري ، بل على المستوى المؤسسي، فنص البيعة يبارك ويزكي الخليفة ، كما أن البيعة كانت دوما بمثابة تلك الأصرة التي تربط بين الملك من جهة وبين رعاياه من جهة أخرى .

وتعتبر البيعة عقدا شرعيا يلزم الرعية بالطاعة والإخلاص للسلطان، الذي يصبح بذلك مسؤولا بالدرجة الأولى عن حماية شؤون المواطنين المبايعين والدفاع عن حوزة البلاد التي يسكنونها، وبذلك تتحقق سيادته الكاملة عليها، وشمول سلطته لجميع أطرافها بالممارسة والمزاولة ، وقد كان هذا هو الأمر بالنسبة إلى جميع الأطراف المملكة المغربية ، ومن ضمنها إقليم الصحراء ، وحتى في الوقت الذي جزأ فيه الاستعمار أطراف البلاد ، بقيت بيعة السكان قائمة في الشمال والجنوب ، تتمثل أساسا في الدعاء للسلطان على المنابر في أيام الجمعة والأعياد تأكيدا لهذه البيعة.

الحسن الثاني، ذاكرة ملك ، (بدون ذكر مكان النشر) ، الشركة السعودية للأبحاث والنشر، 1993، الطبعة الثانية، ص55. ⁶⁸

وهناك ملاحظة جديرة بالاعتبار ، وهي أن جميع المعاهدات الدولية المتعلقة بالمغرب، والمبرمة قبل الحماية قد نصت على وجوب احترام "سيادة السلطان الكاملة وتام إيلاته"، ذلك أن سيادة المغرب الترابية تتمثل - حسب الأعراف والتقاليد السياسية المغربية - في العاهل الذي هو المؤتمن عليها.

وقد كانت البيعة الشرعية بمثابة وثيقة قانونية يؤكد فيها المواطنون، بواسطة ممثلهم، ولاءهم للعاهل واعترافهم بشمول سيادته (أي سلطانه الفعلي) على مجموع أراضي مملكته، ولما كانت الوثائق قد أثبتت رعية قبائل الصحراء الغربية لملوك المغرب عن طريق البيعة التي هي ، باعتراف محكمة العدل الدولية،

رباط قانوني أي تترتب عنه حقوق وواجبات، فإن هذه البيعة إنما تؤكد شمول سيادة ملك المغرب للصحراء ، أي وجود روابط السيادة الإقليمية التي كان من مظاهرها التزام السلطان دوليا - أي بواسطة المعاهدات - بكل ما يترتب عن هذه السيادة من الدفاع عن الحوزة وحماية رعايا الدول الأجنبية الموجودين فوق تراب المملكة⁶⁹.

إن مبايعة سكان الصحراء للملوك العلويين لم يكن المراد منه الاعتراف بحكمهم أو الولاء والطاعة لهم فقط، بل إنه اعتراف يجعل من الصحراء أرضا مغربية على السلطان حمايتها والدفاع عنها من الأطماع الأجنبية، وهذا ما يؤكد تاريخ المغرب، كما أن تعيين الأقاليم بأسمائها وتوقيعات رؤسائها في البيعة التي ترفع إلى سلاطين المغرب يمكننا من

⁶⁹. راجع محمد العربي الخطابي، "مفهوم البيعة والسيادة الترابية"، مجلة الفنون ، عدد خاص عن المسيرة الخضراء، 1976 ، ص127.

التعرف على حدود الدولة ، وبالتالي امتداد أرض المملكة وحدودها فضلا عن معرفة الأراضي التابعة أو الخارجة عن نفوذها⁷⁰.

ومن بين البيعات الشرعية للقبائل الصحراوية، والتي كان لها ارتباط وثيق بالملوك والسلطين المغاربة، نذكر البيعات التالية على سبيل المثال كنماذج للبيعات الشرعية المتعددة التي ظلت تتوارد على سلاطين المغرب من القبائل الصحراوية منذ قيام الدولة المغربية⁷¹ :

- 1 - بيعة قبائل أهل الساحل والقبلة ودليم وبربوش والنغافرة ووادي مطاع وجرار وغيرهم ، للمولى إسماعيل ، وكان ذلك سنة 1089 هـ عندما غزا صحراء السوس ، فبلغ أقا وطاقا وتيشيت وشنجيط وتخوم السودان، وقد تزوج آنذاك المولى إسماعيل الحرة خناشة بنت الشيخ بكار المغفري.
- 2 - بيعة أهل توات للسلطان عبد الملك بن مولاي إسماعيل سنة 1140 هـ / 1728 م.
- 3 - بيعة للسلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام بمبادرة أحد الشيوخ الأعلام من صحراء شنكيط، وهو ابن طوير الجنة الطالب احمد المصطفى الشنكيطي التيشيني الوداني.
- 4 - بيعة لمولاي عبد الرحمان أيضا من الشيخ المختار الكنتي الحفيد ابن محمد بن المختار.
- 5 - بيعة لمولاي عبد الرحمان أيضا للشيخ احمد البكاي بن محمد بن المختار الكنتي.

(أنظر عبد الحميد سحبان، "البيعة .. المؤسسة العريقة..." مرجع سابق الذكر. ⁷⁰
⁷¹ أنظر الدكتور سعيد بوركية، "أضواء على مدى عمق الروابط بين قبائل الصحراء المغربية وملوك الدولة العلوية : ارتباط ثابت بالبيعة والولاء التاريخي الوطيد"، جريدة الصحراء المغربية، العدد 3931، 25 أكتوبر 1999

6 - بيعة للسلطان محمد الرابع من إمام تندوف الشيخ محمد المختار ابن الأعمش

الجنكي، وفيها يعلن عن بيعة الإقليم للسلطان العلوي محمد الرابع.

7 - بيعات الشيخ ماء العينين إلى السلاطين المغاربة، والذي كانت علاقاته بالحكومة

الشريفة على أحسن وجه، ذلك أنه كان يعتبر فيما بين سنتي 1888 و1900 نائبا

للمخزن في الصحراء لا فرق بينه وبين نواب السلطان في مراكش ومكناس وتافيلالت.

وفي سنة 1887 دأب السلطان مولاي الحسن الأول على مقابله في مدينة مراكش.

وفي سنة 1896 مثل بين يدي السلطان مولاي عبد العزيز الذي استقبله بما يليق به من

التحية والاحترام، وقد حمل معه طاعة أهل الصحراء وتعلقهم ، مما جعل السلطان يكافئ

رعاياه الصحراويين على ذلك بإزالة الضريبة عنهم وإعفاءهم من الواجبات المعلومة للمخزن

التي كانت توفرها على ظهور الإبل وتسلم للنائب السلطاني في مراكش . وهكذا نلاحظ

مدى ارتباط هذا الشيخ الذي يعتبر من بين الشخصيات الهامة والبارزة في الصحراء

بالمولوك العلويين، حيث اتصل أولا بالمولى عبد الرحمان بن هشام، ثم بابنه محمد الرابع،

ثم بالحسن الأول ، ثم بالمولى عبد العزيز ، ثم بالمولى عبد الحفيظ، مما يجعلنا نؤمن

بمدى العلاقات التي تجعل الطرفين يرتبطان ارتباطا عميقا، الشيء الذي يدحض كثيرا

من الأقاويل المفتعلة ضد السيادة المغربية على صحرائها.

أما عن البيعات التي صدرت بعد استرجاع الصحراء ، فقد كانت تحترم كافة العناصر

المغربية الإسلامية المميزة للبيعة في المغرب، فالبيعة التي بعث بها رئيس الجماعة

الصحراوية السيد خطري ولد سيدي سعيد الجماني إلى ملك المغرب يوم 2 نونبر 1975

من "لاس بالماس" تقدم كافة العناصر التقليدية من التقاء الأيدي والآية العاشرة من سورة

النصر.. ولكن نظرا إلى أن الأمر يتعلق هنا بتجديد البيعة، فسند التأكيد على التشبث بالعهود التي قامت بين الأسلاف ، يقول السيد خطري الجماني: " لقد شرفقتي يا مولاي بخطابكم السامي وأذنتم لشخصي الضعيف للمثول بين يدي جلالكم بمراكش عاصمة الجنوب بتجديد البيعة

وتأكيد العهود التي كانت تربط بين أجدادكم المنعمين وبين خدامهم من آبائنا وأجدادنا .. مولاي ، إنني أبايعك وأعاهدك كما بايع وعاهد أجدادي أجدادك المنعمين..."

ومن جهة أخرى نجد أن البيعة التي بعثها سكان الداخلة ووادي الذهب المؤرخة في 13 غشت 1979 والمحركة من قبل قاضي المنطقة السيد حبيب الله بن أبوه والتي وقعها ممثلون عن مختلف القبائل الصحراوية، تركز اهتمامها على ملك المغرب كضامن للسلام⁷² ، فمنذ السطور الأولى لنص هذه البيعة سنلاحظ هذا الانشغال ، فالوثيقة تبتدئ بحمد الله "الذي نظم بالخلافة شمل الدين وصان بها الدماء والأموال والأعراض وغل بها أيدي الجبابرة عن مفاصد الأعراض" ، ثم تتابع في هذا السياق لتؤكد على ضرورة إيجاد من يحكم البلاد عندما تقول " وقال الرسول (ص) إذا مررت بأرض ليس فيها سلطان فلا تدخلوها، إنما السلطان ظل الله ورمحه في الأرض" ثم تؤكد على لزوم تقديم البيعة ، قال الرسول (ص) : " من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية".

هكذا نجد إذن أن لهذه البيعة المجددة مبرراتها التي تندرج في إطار التعاقد الأولي الذي يقدم الحاكم حمايته للمحكوم، على أساس مبايعة هذا الأخير له⁷³. فالبيعة بهذا

⁷² هذه البيعة هي تجديد لبيعة سابقة محررة من طرف السيد إبراهيم الليلي قاضي عيون الساقية الحمراء باسم سكان الصحراء المغربية في نونبر 1974 . انظر نصها الكامل في انبعاث أمة، الجزء التاسع عشر، 1974، مرجع سابق ، ص 274.

⁷³ انظر الحسين بوزينب ، البيعة و ارتباط الصحراء بالمغرب ، مجلة المناهل ، العدد 49 ، مرجع سابق ، ص 45 .

المفهوم تفيد معنى من معاني السيادة السياسية والقانونية ، كما أنها أحد الأسس الجوهرية لنظام الحكم بالمغرب ، ذلك أن كل الدول المتعاقبة في المغرب قامت على أساس البيعة الشرعية ومن تم كانت الصحراء المغربية، وبعد أن أثبتت محكمة العدل الدولية وجود روابط بيعة بينها وبين المملكة المغربية، جزءا لا يتجزأ من مناطق نفوذ السيادة المغربية، كما هو الشأن بالنسبة لأي إقليم من أقاليم المملكة⁷⁴. ومما تجذر الإشارة إليه ، الدور الفاعل لعلماء الصحراء المغربية في توثيق روابط البيعة والحض على القيام بواجب الطاعة والتمسك بالبيعة الشرعية للملوك العلويين⁷⁵، وهكذا يؤكد ارتباط الإقليم الصحراوي بالدولة المغربية ارتباطا ثابتا وراسخا وسياديا، يواكب الارتباط الدائم المتصل لقبائله بالسلطين المغاربة عبر عقود البيعات الشرعية المتوالية والمتجددة.

74 . انظر عبد القادر الإدريسي ، ... و دخل الحسن العيون ، الرباط ، مطبعة الرسالة ، 1985 ، ص 289 .

75 . انظر في هذا الصدد، الشيخ ماء العينين لارباس، " وفاء علماء الصحراء لبيعة الملوك العلويين "، أشغال الدورة الثانية لندوة البيعة والخلافة في الإسلام، الجزء الأول، العيون، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1994 .